الغفران في العهد القديم
مصطلحات وخلاصات

الأب أيوب شهوان

مقدّمة

الغفران هو محو إساءةٍ ما من ذاكرة الشخص المُساء إليه. عند اقتلاع الإساءة، لا تعود هذه الأخيرة تتحكّم من بعد بالعلاقة بين المسيء والمُسَاء إليه، فيعمّ الانسجام بين الفريقين من جديد. يشدد الكتاب المقدّس على المغفرة البشريّة، وعلى المغفرة الإلهيّة؛ هذه الأخيرة هي تحديدًا الفعلُ الإلهيُّ الذي به تتحقّق إزالة الخطيئة ونتائجها. نعالج في هذه العجالة موضوع الغفران في العهد القديم، وذلك من خلال دراسة المصطلحات الخاصة، أوّلاً، وعرض بعض خلاصات من العهد القديم حول الغفران، ثانيًا، ونختم بنبذة عن صدى هذه الأفكار في الفكر اليهوديّ وممارساته.

أ – دراسة مصطلحات الغفران في العهد القديم

١) الفعل "غفر"

المصطلح الأساسيّ للمغفرة في العهد القديم هو "سَلَحْ"، الذي يرد حوالى الخمسين مرّة. الفاعل الذي يحقّق المغفرة هو الله؛ هذا الاستعمال هو الغالب، والمفعول المزدوج هو الشخص الذي يُغفَر له، والخطيئة المغفورة التي يُعبَّر عنها بالمصطلحات : "الإثم"، "الذنب"، "الخطيئة"، "المعصية"، "التعدّي".

من مَعَالم صلاة التضرّع توجيهُ نداء إلى الله من أجل الحصول على المغفرة. الاستعمال الأوّل في الأسفار الخمسة للفعل "غفر" ("سَلَحْ"، خر ٣٤: ٩) هو في إطار صلاة تضرّع يرفعها موسى من أجل شعبه السالك في الخطيئة. يركز موسى نداءه لنوال المغفرة على الإعلان الإيمانيّ الذي في خر ٣٤:٦-٧، حيث يتمّ الاعتراف برحمة الله وبإرادته أن يسامح. المغفرة في هذا النصّ هي معادلة لحضور الله المتواصل مع شعبه ولقيادته له. في عد ١٤: ١٩-٢٠ يرتكز نداء موسى ("إغفر إثم هذا الشعب") على التكرار في عد ١٤:١٨ للإعلان الإيمانيّ الوارد في خر ٣٤: ٦-٧.

هناك نداء آخر يوجّهه سليمانُ إلى الله من أجل الحصول على المغفرة، حيث نصادف في صلاته في الهيكل الفعل "غفر" خمس مرّات (١ مل ٨: ٣٠ و٣٤ و٣٦ و٥٠ = ٢ أخ ٦: ٢١ و٢٥ و٢٧ و٣٠ و٣٩). تتلاقى الندامة البشريّة ("العودة إلى الله" في ١ مل ٨: ٣٣، و"العودة عن الخطيئة" في ٨: ٣٥) والرحمة الإلهيّة (آ ٥٠) مع المغفرة في صلاة سليمان؛ يظهر ذات الارتباط بين الندم وبين المغفرة في وعد الله لسليمان في ٢ أخ ٧: ١٤.

في عا ٧: ٢ يُستعمل الفعل "غفر" في تشفّع نبوي من أجل نوال المسامحة. ويُستعمل الاسم "الغفران" في صلاة التوبة عند عزرا، التي يرفعها إلى الله من أجل الحصول على المغفرة، بكلمات مستلَّة من صيغة الاعتراف التي في خر ٣٤: ٦-٧، وفي عد ١٤: ١٨.

في صلاة دانيال التي يتشفّع فيها من أجل مسامحة الشعب، يظهر الاسم "الغفران" في دا ٩: ٩، بارتباط مع الرحمة؛ يتّكل دانيال على رحمة الله الفياضة (٩: ١٨)، فيصلّي قائلاً : "يا ربّ، إستمع ! يا ربّ إغفر" (٩: ١٩).

بالإضافة إلى الصلوات التي تُتلَى من أجل مسامحة الشعب، يظهر الفعل "غفر" ست مرّات في إرميا (٥: ١ و٧؛ ٣١: ٣٤؛ ٣٣: ٨؛ ٣٦: ٣؛ ٥٠: ٢٠). مرّتان في إر ٥، يتمّ طلب المسامحة، أو نكرانها، بسبب عبادة آلهة غريبة (تث ٢٩: ١٩؛ ٢ مل ٢٤: ٤). في ٣:٣٦ المسامحة هي ممكنة إذا تاب الشعب ("عاد" : رج ١ مل ٨: ٣٣-٣٦). تتضمّن المرّات الأخرى الباقية في إرميا الوعد الإلهيّ الإيجابيّ بالمسامحة. كذلك يعترف أش ٥٥: ٧ بأنّ الله رحوم وغني بالمغفرة.

هناك مرّات أربع يَرِدُ فيها موضوع "الغفران" في سفر المزامير (مز ٢١: ١١؛ ١٠٣: ٣؛ ٣٦: ٥؛ ١٣٠: ٤؛ لاحظ التشابه بين مز ١٣٠: ٣-٤وبين عا ٧: ٢). إنّ التأكيد على المسامحة في رثاء مز ١٣٠، له نقيضه في رثاء مرا ٣: ٤٢ الذي يُنكر إمكانيّة المسامحة.

يرِدُ موضوع الغفران أيضًا في عد ٣٠: ٦ و٩ و١٣، حيث يدور الكلام على تحرير الله للإنسان من الخطيئة، وفي ٢ مل ٥: ١٨ حيث يسأل نعمان المسامحة على خطيئة الاشتراك في طقوس غير يهوهيّة.

إنّ الجمل الثلاث عشرة التي نصادف فيها الفعل "غفر" بصيغة المجهول في سفرَي اللاويّين (١٠ مرّات) والعدد (٣ مرّات) هي كلّها جزء من التشريع الكهنوتيّ الذي ينظّم العبادة؛ مثلاً : "على الكاهن أن يقوم بالتكفير عن نفسه فيُغفَر له". مَن يحقق المسامحة هو الله، عبر تشفّع الكاهن؛ ليست المسامحة نتيجة للطقوس الكهنوتيّة بل هي عمل الله ومن جوده. إنّ الخطايا التي تتم المسامحة عنها في هذه النصوص هي في معظمها خطايا إهمال (لا ٤: ٢٠و٢٦ و٣١ و٣٥؛ ٥: ١٦و١٨؛ عد ١٥: ٢٥و٢٦ و٢٨). وهناك أيضًا خطايا الإهمال "الخفيّة" (لا ٥: ٢ و٣ و٤)، أي تلك التي نسيها الخاطئ. أمّا في لا ٥: ٢٦ و١٩: ٢٢ فيجري الكلام على طقوس التكفير، وعلى مسامحة الله لمقترف الخطيئة عمدًا.

٢) أفعال مرادفة للفعل "غفر"

في الجزء الذي سيلي سنتوقّف عند المفردات/الأفعال المعادلة لفعل "غفر"، وهي بشكل عامّ إستعاريّة المنحى، إمّا مرادفة للفعل "غفر"، وإن قريبة منه، وتدل على إزالة الخطيئة.

١/٢) الفعل "رَفَعَ"

يشمل الفعلُ "رَفَعَ" المفردات : "إثم" و"ذَنْب"، "خطيئة"، "مخالفة" أو "معصية"، كمفعول به. بإمكان الفعل "رَفَعَ" أن يعني "حَمَلَ" (الإثم، الخطيئة، المعصية)، أي "حمل بعيدًا"، "أزاحَ الخطيئةَ ومفعالَيها" (بما فيها العقاب)، وذلك بأَخْذِها بعيدًا، بمعنى المسامحة أو المغفرة. في حين أنّ هذه التعابير الأكثر شيوعًا، أي "رَفَعَ الإثمَ" تَرِدُ ٣٥ مرّة في العهد القديم، فإننا سنهتمّ هنا بسبعٍ منها فقط (خر ٣٤: ٧؛ عد ١٤: ١٨؛ مز ٣٢: ٥؛ :٨٥: ٣؛ أش ٣٣: ٤٢؛ هو ١٤: ٣؛ مي ٧: ١٨)، حيث الله هو الفاعل، فيغفر للخاطىء عَبْرَ أَخْذِهِ بعيدًا خطيئة الإنسان. يمتنع الله عن أن يعاقب، مرجئًا نتائج الخطيئة أو مُعْفِيًا منها إلى حينٍ. إن مردّ هذا التأجيل المؤقت للعقاب أو للمجازاة هو الندامة (٢ مل ٢٠: ١٦-١٩؛ ٢٢: ١٩-٢٠).

– ارتباط الفعل "رفع" بالفعل "غفر"

نصادف الفعل "رَفَعَ" بارتباط مع الفعل "غفر" في ثلاث حالات. في خر ٣٤: ٧، يلي وصفَ الله لذاته ("يرفع الإثم، والتعدّي، والخطيئة") تَشَفُّعُ موسى في ٣٤: ٩ : "إغفر إثَمنا وخطايانا". في عد ١٨: ١٤ لدينا صيغة أقصر من تلك التي في خر ٣٤: ٧ (من دون "خطيئة") يليها في ١٤: ١٩ تشفُّع موسى : "إغفر إثم الشعبِ بحسب عظيم رأفتك، كما غفرتَ ("أخذتَ بعيدًا [الخطيئةَ]) لهذا الشعبِ منذ أيّام مصر وحتّى الآن". هناك أيضًا مز ٢٥: ١١ ("إغفر إثمي") الذي تعادله آ ١٨ : "خذ بعيدًا كلَّ خطاياي".

– الفعل "رفع" دون الفعل "غفر"

إنّ النصوص التي يَرِدُ فيها الفعل "رَفَعَ" دون ارتباط بالفعل "غفر"، هي خر ٣٢: ٣٢، حيث يتشفع موسى من أجل إزالة خطيئة الشعب بسبب العجل المذهّب. في آ ٣٠ يصف موسى صلاتَه بأنّها "تكفير". في مز ٩٩: ٨، تُوَجَّهُ شفاعةُ موسى وهارون وصموئيل إلى "الله الغفور". هناك جملتان أخريان تتكلّمان على التشفّع من أجل المسامحة في خر ١٠: ١٦-١٧، حيث يُقِرّ الفرعون بخطيئته، ويوجّه نداءً إلى موسى من أجل المسامحة : "والآن خذ خطيئتي بعيدًا". وفي ١ صم ١٥: ٢٤-٢٥، يستعمل شاول ذات الكلمات في توسّله إلى صموئيل من أجل المسامحة. يتصرف موسى وصموئيل هنا، ليس على أنّهما بالذات واهبَا المغفرة، بل على أنّهما شفيعان من أجل الحصول على المسامحة الإلهيّة (رج إر ١٥: ١). في يش ٢٤: ١٩ يحذّر خليفةُ موسى الشعبَ من أنّ الله "لن يأخذ بعيدًا مخالفاتهم وخطاياهم"، إذا تركوه لخدمة آلهة أخرى.

– الفعل "رفع" في المزامير

هناك جملتان مصاغتان مع الفعل "رَفَعَ" في مز ٣٢ : في آ ١ يستعمل صاحب المزامير الفعل "رفع" بصيغة المجهول في وصفه فرحَ مَن "أُخِذَت مخالفته بعيدًا"؛ وفي آ ٥ يلي الاعترافَ بالمخالفة

التأكيدُ "أخذتَ بعيدًا ذَنْبَ خطيئتي". يستعمل مز ٨٥: ٣ ذات الجملة كما في مز ٣٢: ٥ : "أخذتَ بعيدًا ذَنْبَ شعبِكَ"، ويوازيها مع التأكيد "غَطَّيْتَ كلَّ خطيئتِهم" (رج مز ٣٢: ١ : "مَن سُتِرَت خطيئتُه").

– الفعل "رفع" عند الأنبياء

هناك ثلاث نصوص نبويّة تستعمل الفعل "رفع" لإزالة الخطيئة : يَعِدُ أش ٣٣: ٢٤ سكانَ صهيون بأنَّ "إثمهم سيُؤخَذ بعيدًا". هو ١٤: ٣ هو نداء للتوبة يحض فيه النبيُّ إسرائيلَ على العودة إلى الربّ بصلاة "أَزِلْ كلَ خطيئة". يعترف مي ٧: ١٨ بأنَّ الله "يأخذ الإثمَ بعيدًا" في مقطع يذكّر بـــ خر ٣٤: ٦-٧.

أخيرًا، ينبغي أن نذكر لا ١٦: ٢٢ حيث يحمل كبشُ الفداء إثمَ الشعبِ بعيدًا، وأش ٥٣: ١٢ حيث يُنْسَبُ ذاتُ الدور إلى عبد يهوه.

٢/٢) الفعل "شفى"

هناك جملة واحدة مع الفعل "شفى"، بموازاة مع الفعل "غفر"، وهو استعمالٌ يعكس النظرة البيبليّة الشائعة التي تجمع بين الخطيئة والمرض (مز ٣٨: ٤؛ يو ٩: ٣) : "هو يغفر جميعَ آثامك، ويشفي جميعَ أمراضكِ" (مز ١٠٣: ٣). يمكن أن نورد هنا ٢ أخ ٧: ١٤ أيضًا، حيث يَعِدُ اللهُ سليمانَ بأنّه، إذا تاب الشعبُ، "سيغفر خطيئتهم، ويشفي أرضَهم".

هناك مقاطع نجد فيها الفعل "شفى" دون ارتباط بالفعل "غفر"، تصف إزالة الله للخطيئة، مثل مز ٤١: ٥ : "أيها الربّ، كن حليمًا معي : إشفِ نفسي لأني خطئت إليك". أنظر أيضًا إر ٣: ٢٢؛ أش ٥٧: ١٧-١٨؛ مز ١٠٧: ٢٠ و١٤٧: ٣.

٣/٢) الفعل "لا أذكر"

يَرِدُ عدمُ ذكرِ الله للخطيئة مرةً بموازاة مع الفعل "غفر" في إر ٣١: ٣٤ : "سأغفر آثامهم، وخطاياهم لن أعود أذكرها". تتضمّن نصوصٌ أخرى الفعلَ "لا أذكر" دون ارتباط بالفعل "غفر"، مثل مز ٢٥: ٧، حيث يسبق الطلبةَ، "خطايا صبائي ومعاصيّ لا تذكرْها" (آ ٦)، جملةٌ إيجابيةٌ هي نقيضة الأولى : "أذكر، يا ربّ، رحمتَك". يظهر ذات الارتباط بين الله الذي لا يذكر الآثام، وبين رحمته، في مز ٧٩: ٨. في أش ٤٣: ٢٥ يتعادل التأكيد الإلهيّ – "لن أذكر خطاياكم" –مع تعبير استعاريّ آخر لإزالة الخطيئة ("سأمحو معاصيكم"). وفي أش ٦٤: ٨ تُختَتَم صلاة التوبة بألاّ يكون الله غاضبًا بالطلب التالي : "لا تذكر الإثم إلى الأبد". أخيرًا، يوجد تعبير مماثل يمكن إدراجه هنا؛ بدلاً من

عدم ذكر الله للخطيئة، حيث يقول مز ٢: ٣٢ : "طوبى لمن لا يحسب الربّ له إثمًا"، وهي عبارة موازية لعبارة "لا تذكر" في ١ صم ١٩: ٢٠.

٤/٢) الفعل "رَحِمَ"

يربط الكتاب المقدّس بين الرحمة الإلهيّة وبين المسامحة. هناك نصَّان يرتبط فيهما الفعل "رحمَ" بالفعل "غفر"، هما : ١ مل ٨:٥٠ حيث تلي الطلبَ بـــ"المسامَحَة" عبارةُ "هَبْهُم الرحمة"، وأش ٥٥: ٧ حيث الجملة "سيظهر له [الربُّ] رحمةً" هي موازية للجملة "هو غني بالمسامحة".

في مز ١٠٣: ١٢-١٣ يغفر الله برحمته المخالفات بوضعها بعيدًا. وفي مي ٧: ١٩ ترتبط رحمة الله باستعارتَين فريدتَين حول المسامحة الإلهيّة : يضع الله الآثام تحت القدمين، ويرمي بالخطايا في عمق أعماق البحر. تذكّر هاتان الجملتان اللتان تربطان بين الرحمة الإلهيّة وبين الصفح، بارتباط مماثل بين صفح الله وبين "رحمته" (الحبّ الراسخ)، الذي يعني التخليص أو المسامحة بحسب الاعتراف الايمانيّ الذي في خر ٣٤: ٦-٧، وفي النصوص المرتبطة به (عد ١٤: ١٨-١٩)؛ مز ٨٦: ١٥؛ ١٤٥: ٨؛ يؤ ٢: ١٣؛ يون ٢: ٤؛ نح ٩: ١٧).

٥/٢) الفعل "طهر"

هناك جملة واحدة موازية للفعل"غفر" وللفعل "طهّر" أو "نقّى"، هي في إر ٣٣: ٨ ("سأطهّرهم من كلّ آثامهم... وسأصفح عن كلّ خطاياهم"). في لا ١٦: ٣٠، يضمّن التشريع الكهنوتيّ ليوم التكفير التطهير من كلّ خطيئة. ويذكر حز ٣٦: ٢٥ و٣٣؛ ٣٧: ٢٣، تطهيرَ الله لشعبه من الإثم ومن الخطيئة؛ لكن لدينا في حز ٢٤: ١٣رفضُ الله القيامَ بذلك.

في الصلاة الكبيرة لطلب المغفرة في مز ٥١، نجد الفعل "طهر" مرتين، في آ ٤ و٩، حيث يوازي فعل الله المطهِّر عبارة "أزِل الخطيئة منّي"، "أزِل العدوى منّي"، وهو استعمال له جذوره في الطقوس (رج عد ١٩: ١٩)، واستعارة أخرى للتنقية، "إغسل"، يستعملها إر ٢: ٢٢؛ ٤: ١٤.

٦/٢) الفعل "محا"

يرتبط الفعل "محا" بالفعل "غفر"، ولكنّه أقرب إلى الأفعال "طهّرَ، غسَلَ، نقّى"، ويعني "محو المعصية"، كما في مز ٥١: ٣، وطلب عدم تذكّر الخطيئة، كما في أش ٤٣: ٢٥. النقيض السلبيّ لهذا التعبير (أي الطلب بأن يتذكّر الله الإثم ولا يمحو الخطيئة) نجده في مز ١٠٩: ١٤. رج أش ٤٤: ٢٢؛ إر ١٨: ٢٣ (حيث الفعل "محا" هو في موازاة مع الفعل "كفَّرَ")، ونح ٣: ٣٧ (حيث هو في موازاة مع الفعل "ستَرَ").

٧/٢) الفعل "كفَّرَ"

تتكلّم مقاطع عدة على إزالة الخطيئة، على أنّها "تكفير"، وهي فكرة مستلّة أصلاً من العبادة.

نصادف الفعل "كفّر" في إر ١٨: ٢٣ ("كفِّر"، "صفح عن الإثم")، وفي مز ٧٩: ٩ ("صفح عن الخطيئة")، وفي مز ٦: ٤ ("صفح عن المعصية") ، وفي مز ٧٨: ٣٨("صفح عن الإثم"). هناك أخيرًا حز ١٦: ٦٣، وأش ٢٧: ٩ حيث تكفير الإثم له ما يوازيه عبر إزالة الخطيئة؛ رج أش ٦: ٧.

٨/٢) الفعل "عَبَرَ عن"

نجد الفعل "عبر عن" في عدة مقاطع (٢ صم ١٢: ١٣؛ ٢٤: ١٠؛ زك ٣: ٤؛ أي ٧: ٢١؛ كما نجد تعبيرًا مماثلاً في مي ٧: ١٨).

يرتبط هذا الفعل بالمفعول به، أي "الخطيئة" و"الإثم"، وما يماثلهما، على أنّه تعبير تصويريّ يهدف إلى الكلام على إزالة الربّ للخطيئة؛ يتمّ الصفح عندما "يعبر الله عن الخطيئة"، أي عندما توضع الخطيئة بعيدًا وعلى مسافة. هذا يعني أنّ الله قد نقل خطيئة إنسان ما إلى آخر، أي أنّه جعل الخطيئة تعبر إلى آخر.

في هذا السياق، و بحسب ٢ صم ١٢: ١٣، لم يُعطِ ناتانُ لداود التأكيدَ بأنّ الله سيغفر له؛ هو يُعلِمه بنيّةِ الله بأن يكفّر داود خطيئتَه، التي هي الزنى، بموت طفله. ذات الشيء في ٢ صم ٢٤: ١٠-١٧ حيث تُكفَّر خطيئة داود بنقلها إلى الشعب، وهكذا مات سبعون ألفًا منهم بالطاعون. هذا المفهوم للتعبير يماثل الفكرة المذكورة أعلاه، حيث الفعل "رفع" يعني تأجيل نتائج الخطيئة؛ لا يبرئ الله المذنب، بل "ينقل" خطيئته من جيل إلى آخر، إلى أن يتم التكفير عنها.

٩/٢) تعابير فريدة أو غير شائعة

يمكن أن نختم هذا العرض حول مفردات الغفران بالإشارة إلى عدد من التعابير الأقلّ شيوعًا في هذا المجال :

- في مز ١٠٣: ١٢ يُعَبَّر عن الغفران بأنّه "وَضْعُ الخطيئة بعيداً"، أو "على مسافة". رج أيضًا أم ٤: ٢٤ (حيث يُعادلها الفعل "أزاح")؛ أي ١١: ٢٤ و٢٢: ٢٣.

- هناك تعبير تصويريّ آخر، هو "سَتْرُ" اللهِ للخطيئة، في مز ٣٢:١؛ ٨٥:٣؛ نح ٣: ٣٧ (بموازة مع الفعل "محا"). يظهر التعبير "لا تستر إثمهم" (نح ٣: ٣٧)، في صيغة مختلفة في إر ١٨: ٢٣ : "لا تكفّر إثمهم".

- مرتان يعبَّر عن الغفران من خلال "رمي" الله الخطيئة بعيدًا؛ ففي أش ٣٨: ١٧ "يرمي" الله الخطايا وراء ظهره، وفي مي ٧: ١٩ "يرميها" في أعماق البحر.

- ترد الفكرة القائلة بأنّ الله "يضع الخطيئة تحت القدم" مرّة واحدة فقط في العهد القديم (مي ٧: ١٩).

- وأخيرًا يرى الله "يخفي" وجهه كي لا يرَى الخطيئة، وذلك كتعبير عن الغفران، كما في مز ٥١: ١١.

ب – خلاصات حول الغفران من العهد القديم

١) قَبْلَ الغفران التوبة

تختصر توبةُ الإنسان إلى الله، ومغفرةُ الله له، العلاقةَ الوجوديّة بين الاثنين. فقط من خلال فعل عودة إلى الاعتراف بالله، بما هو في تساميه الكلّيّ القدرة، وبالتالي الرفض الفعليّ لأيّة قيمة أخرى تحول دون الاعتراف به بما هو، على أنّه الحقيقة التي لا غنى عنها، يدخل الإنسان من جديد في نظام الله، بعد أن خالفه واعتدى عليه بخياراته المخطئة. بتعبير آخر، التديّن الحقيقيّ لا يتمّ سوى من خلال فعل عودة جذريّة، أي أن يعترف الإنسان بعجزه عن اكتفائه بذاته ليخلص، واضعًا ذاته في حالة إصغاء إلى كلمة الله. في ذات الوقت، يعترف بعجزه عن أن يكون في سلام مع الله بقواه المحدودة، أو من خلال أعمال طقسيّة، فينتظر الصفح من صلاح الله الرحوم فقط، ومن مبادرة نابعة من إرادته الخلاصيّة الحرّة. ليس بمقدور أحد أن ينتزع الصفح من الربّ، دون أن يبادر (وهذا أيضًا هو عطيّة خاصّة من الله) إلى القيام بتوبة صادقة، ودون اتخاذ قصدٍ بالدخول من جديد في الترتيب الذي وضعه الله. بتعبير آخر، لا صفح دون توبة وعودة، ولا توبة وعودة دون نبذ الميل إلى اعتبار الإنسان ذاتَه قادرًا، ولوحده، على أن يجد طريق الخلاص. في تحقيق هذين الأمرّين، أي التوبة والغفران، يختبر الإنسان تعزيات وجودٍ فريدٍ تملأه المسرّات، وجودٍ مكوَّنٍ من صفاء وسلام في الداخل، ومن رسوخ في المعتقد، ومن تكرّس بطوليّ لقضيّة المعرفة، ومن إيمان بما هو الله حقًّا بالنسبة إليه.

٢) الغفران الإلهيّ والحرّيّة

يصفح اللهُ عن الإنسان، واهبًا إيّاه الوسائلَ الضروريّة ليحقّقَ خلاصَه، ولأن يرجوه. عندما يخلّص اللهُ الإنسانَ صافحًا عن خطاياه، فإنّه يضعه في منأى من قبضة الشر والموت القتّالة. لكن هذا لا يعفي الإنسان من واجب المساهمة الشخصيّة، الخلقيّة والروحيّة، فيكون هكذا شريكًا في تحقيق خلاصه، وبلوغ السعادة، اللذين يصبو إليهما. لا ينزع الله من الإنسان حرّيّة الاختيار عندما يتدخل ليخلصه.

فالمعادلة بين الحياة وبين حرّيّة الخيار هامّة جدًّا في عيني الله، وأن يحيا المرء يعني أن يكون قادرًا أن يختار، شرط أن يحسن الاختيار. هكذا، كما أن الغفران الإلهيّ هو مبادرة حرّة، كذلك قبول الغفران يبقى أيضًا موقفًا حرًّا.

٣) التوبة غفران ومصالحة وفعل عبادة

عندما يتوب الخاطىء ويسأل اللهَ أن يعفو عنه، فإنّه يقوم بفعل عبادة حقّة، يعبّر بها عن الاحترام الشديد للحقيقة الفائقة الطبيعة؛ فحيث التديّن، أي الاعتراف بالحقيقة الفائقة الطبيعة، هناك العبادة، وبالتالي، لا تديّن دون عبادة. العبادة والديانة مترادفان؛ إنهما التصاق بالربّ واتّباع له. فالعبادة تمثّل شهادةَ إيمان حقّة، وسيرًا في طريق الخيارات الصحيحة التي يمكن تفعيلها، فقط إذا تغذّت بإرادة صادقة بالتوبة إلى الله، وبالعزوف عن الخطيئة.

الحياة الدينيّة، بمعناها الأكثر أصالة، لا يمكنها أن تكون إذًا سوى رغبة في المصالحة مع الله. ففي حال الخطيئة، وفي موقف التكبّر، وفي ممارسة الظُلم، وفي اتباع الشهوات، يضع الإنسان نفسه في حالة عداوة مع الله. فحيث الخطيئة هناك العداوة. ومن خلال العطايا الخلاصيّة، بدءًا بالغفران، يقوم الله بأولى الخطوات نحو المصالحة، واضعًا الإنسان ضِمن إطار يعترف فيه بالمسافة بينه وبين إلهه. هكذا، يصبح تاريخ الخلاص تاريخَ مصالحة، وإعادة العلاقات الجيّدة مع الله. فقط عندما يعترف الإنسان بعدم اكتفائه الذاتي، يجد من جديد إيمانه الحقيقيّ ورجاءه ومحبّته.

٤) طلب المغفرة عن الإصرار على الخطيئة

تارخ كلّ مؤمن هو تاريخ فيض نعمة وخيرات إلهيّة (مز ١١٦: ١٢). إن عملَ اللهِ من حيث صلاحُه ومن حيث حمايتُه، هو بَـــيِّنٌ للضمير في حياة كلّ فرد، إلى حدّ أنه يجب على مَن أصرَّ على عناده في رفض هذا العمل (مز ٤: ٤-٦) أن يطلب الصفحَ من الله.

ليس هناك من خطيئة كبيرة لا يصفح الله – في صلاحه ورحمته – عن مقترفها، عندما يعترف هذا الأخير باتضاع بها، ويُرفِق الاعترافَ بالقصد بالتخلّي عن الشر. فقط على أثر اعتراف صادق ومتواضع، يمحض الله مغفرة الخطايا. كلّ إنسان يعترف بخطيئته، يضحي قادرًا على أن يرجو الصفحَ من الله، ويشعرَ في أعماقه بالفرح العميق. مَن حظي بالصفح الإلهيّ، لن ينقصه شيء.

٥) طلب المغفرة بحث عن الله

يُعَبَّر عن رغبة الإنسان بإقامة العلاقات الحميمة مع الله، والتي تنقطع بسبب الخطيئة، بسلسلة من الصِيغ التي نتبيّن من خلالها أن الربّ هو المرجع الأسمى لكلّ تحرُّك الإنسان، وهي التالية : "البحث

عن الربّ" (عا ٥: ٤؛ هو ١٠: ١٢)، "البحث عن وجهه" (هو ٥: ١٥؛ مز ٢٤: ٦؛ ٢٧: ٨)، "الاتضاع أمامه" (١ مل ٢١: ٢٩؛ ٢ مل ٢٢: ١٩)، "تثبيت القلب فيه" (١ صم٧: ٣)، وصِيَغ أخرى مماثلة. بالتالي، المفردة الأكثر استعمالاً للتعبير عن الموقف الصحيح الذي ينبغي على الإنسان، في مجمل وجوده، أن يعتمده تجاه الله، هي "الرجوع" ("شُوبْ") الذي يَرِدُ، بالمعنى الدينيّ، حوالى ١٢٠ مرّة. لا يمكن الإنسان إذًا أن يقيم علاقة حقيقيّة مع الله دون أن يعي حقيقة الخطيئة التي أبعدته عن الله، والتي تبقيه بعيدًا، إذا لم تكن لديه الإرادة الحاسمة لقطع الإيحاءات التي تحاصَره، وللعودة إليه. بعد اختبار الخطيئة، والحالة الحزينة التي تجعل الإنسان يعيش فيها، لا طريق لإقامة علاقات حقيقيّة مع الله سوى رفض اعتبار الذات القاعدةَ الوحيدةَ للخُلُقيّة، والينبوعَ الوحيدَ للخلاص. عمليّة "التوبة" هي إذًا عمليّة معاكِسة وبوضوح لمنحى باتجاه "الخطيئة". ففي هذه الأخيرة ينطلق الإنسان "من" الله، ويذهب "نحو" الشر؛ في التوبة، بالمقابل، ينطلق "من" الشر، ويذهب "نحو" الله. على الإنسان الذي ينوي أن "يخدم" الله أن "يعود" عن أي شكّل من أشكال الخطيئة : عن "السلوك السيّء"، عن "السلوك العتيق"، عن "الأفعال الشريرة"، عن "العنف"، عن "عبادة الأصنام"، عن "الدنس"، عن "الفساد"، و"الخطيئة"، و"الجُرْم" بمختلف أنواعه. لكن الابتعاد عن الخطيئة لا يكفي ، بل ينبغي الوصول إلى الله كإلى هدف حقيقيّ. لم يكن لدى أنبياء القرن الثامن ق. م. من شكّ في ضرورة التوبة، بالمعنى التام للكلمة، أي رفض الخطيئة والالتحام بالربّ.

ج – صدى موضوع الغفران في التقليد اليهوديّ

في خر ٣٤: ٦-٧ يبدو غفران الخطايا والمعاصي من أهّمّ صفات الله الثلاث عشرة. لذا تدعو البركةُ السادسةُ من "العَمِيدَهْ"[١] الله أنه "هو الذي يغفر بفيض".

إنّ رحمة الله المستعدّ دومًا أن يحلّ شعبه الأثيم من خطيئته، هي موضوع شائع في الكتاب المقدّس. وحتّى في حالة الجحود القصوى التي فيها تخلّى بنو إسرائيل عنه ليعبدوا العجل المذهّب، قَبِلَ توسّلَ موسى وتراجع عن غضبه (خر ٣٢: ١١-١٤). ومن الأقوال المميّزة لدى الأنبياء، تلك التي تحثّ على التوبة وعلى العودة إلى الله، والممكنَتَيْن بفضل رحمته وصفحه عن الذنوب.

في ليتورجيّة "يوم التكفير"، الموضوع الرئيسيّ هي المحطّات الثلاث، خطيئة -ندامة -مغفرة، كما المرحلة التي تسبقه مباشرة، أي مرحلة "الغفران العظيم" (حرفيًا : "الغفران بفيض")[٢]. ترجع الجُمَلُ

---

[١] تعني كلمة "عَمِيدَهْ" حرفيًا "(الصلاة) وقوفًا"، تُتلى والرجلان مضمومتان. هي عنصر مركزيّ في كلّ الصلوات، ويعتبرها التلمود "الصلاة" (مع "ألـ" العتريف)، أي الصلاة بامتياز. وُضعت صلوات الـ"عَمِيدَهْ" الثلاث اليوميّة، لتحلّ محلّ تقادم الهيكل اليوميّة في الهيكل (رج **بْرَخُت** ٢٦ ب).

المركزيّة لهذه الليتورجيّا إلى صلاة موسى من أجل إسرائيل (عد ١٤: ١٩-٢٠)، وإلى الصلاة : "يا إله الرحمة، إغفر لنا، حُلّنا، وهبنا التكفير". تقضي العادة، ليلة "يوم الغفران"، بالذهاب إلى مَن حَصَلَت إساءة ضدهم، بهدف الحصول على المسامحة منهم، وتقديم التعويض لهم. هنا أيضًا، يُطلَب مِمَّن أُسيءَ إليه بأن يكون "ليّنًا كقصبة، وليس صلبًا كأرزة"[٣]، ورحيمًا كمقدار رحمة الله بالذات.

يشدد التقليد اليهوديّ بنوع خاصّ على واجب ألا يكتفي الإنسان بالحصول على الصفح من الله، بل يلزمه أن يجتهد للحصول على صفح قريبه أيضًا. يوصف الله بأنّه مستعد أن يصفح لدى أوّل علامة ندامة[٤]، لذا ينبغي أن "يسير الإنسان في طرق الربّ"، أي أن يقلّده، متخذًا هذه الصفة وكأنّها خاصّته. هكذا فعل إبراهيم الذي، ليس فقط سامح أبيملك، بل صلّى أيضًا إلى الله من أجل شفائه (تك ٢٠: ١٧).

خاتمة

ما ينبغي أن نستخلصه من هذه الجولة هو أوّلاً فتح الآفاق أمام تفكير بيبليّ معمق. فدراسة أهمّ الأفعال المعبِّرة عنه، وعرض بعض المواضيع الهامّة المتعلّقة بالغفران في العهد القديم، لكفيلان بأن يثيرَا لدى القارىء الفضول العلميّ، من جهة، والغيرةَ الروحيّة على ما هو للربّ، من جهة ثانية. كم هو أهمّ أن تتجلّى للقارىء صورة الله كما هو شاءها، صورة الإله الحنون، والرحوم، والغفور، الذي يريد حياة الخاطىء لا موته. هكذا فَهِمَ قديسو شعب الله ما تعلمه التوراة، وهو أنّ الله طويل الأناة وكثير الرحمة.

---

[٢] "سْلِيحُتْ"، جَمْع الكثرة، كما في نح ٩: ١٧، مشتقّة من كلمة "سْلِيحَهْ"، أي "المسامحة"، كما في مز ١٣٠: ٤.

[٣] رج **تَعنِيتْ** ٢٠ب. "تَعَنِيتْ" كلمة عبرية تعني "الصوم"، وتشير إلى المسألة التاسعة من نظام الـــ"مُعِدْ" (أي الزمن المحدَّد؛ تعالج الشرائع المتعلقة الأعياد) في الـــ"مِشْنَهْ" (أي الشريعة الشفهية ودراستها). تناقش فصولها الأربعة الشرائع التي تقرر إقامة يوم صوم عام في حالات الجفاف وانتشار وباء أو غزو جيش غريب (رج ١ مل ٨: ٣٥-٣٩).

[٤] رج **حَجِيجَهْ ٥أ**. "حجيجَهْ" هي كلمة عبرية تعني "الذبيحة التي تُقَدَّم في اليوم الأول من أعياد الحج، وتشير إلى المسألة الثانية عشرة من نظام الـــ"مُعِدْ" في الـــ"مِشْنَهْ".